مسألة التراث والتقدم

بقلم غالب هلسا

عندما فتح نابليون مصر وضع على رأسه عمامة كبيرة ، وجمع الشيوخ وناقشهم في مسائل الفقه ، وعلق منشورات في شوارع القاهرة تقول ان نابليون قد اخضع البابا بسبب من حبه للاسلام والمسلمين .

وهكذا لم يجد الرجل الذي زلزل النظم الاقطاعية في اوروبا الا ان يلجأ الى تراث اقطاعي متخلف ليدعم سيطرته على مصر انذاك . ونهاية نابليون في مصر معروفة ، اذ لم تشفع له العمامة ولا درايته بمسائل الفقه .

وتأكيد بعض الجوانب المتخلفة في التراث الاجتماعي لاجتذاب الجماهير وخلق تأكيد واسع هو اسلوب يلجأ اليه كثير من القادة ، لانه سبيل ميسور للسيطرة . وليس لنا ان نتهم كل من يلجأ الى ذلك بسوء النية ، فالواقع ان هنالك كثيرا من جوانب التقدم التي لا يسهل فرضها على الجماهير اذا لم تختلط بتراثها وتقدم على اساس من هذا التراث . فما تزال في اوروبا اقسام واسعة من السكان تؤمن بما يسمى بالعلم المسيحي ، وما تزال كثير من الاصطلاحات التقدمية تلقى معارضة البابا العنيدة .

ان مثل هذا الاتجاه ، وان كان يحقق بعض الانتصارات السريعة ، يخلق مشاكل شديدة التعقيد في المدى البعيد . اي انه يحدث ان يطمس مدلول التقدم وتحارب بعض الجوانب الفكرية والاخلاقية التي يجب ان ترافقه من اجل ان تتقبل الجماهير هذا التقدم بسرعه ولاختصار الوقت والجهد اللذين يجب بذلهما لنقل التقدم التكنيكي من الواقع الى الدماغ والسلوك .

ان مثل هذه الظاهرة واضحة الى ابعد مدى في عالمنا العربي ، حيث نتبينها في كل مجال من مجالات الحياة عندنا . ففي كل بلد عربي تقريبا يوجد قانونان يعملان معا ، قانون جنائي ودستوري يكاد يكون مقتبسا عن القوانين الاوروبية ، وقانون اخر يمثل تراثا اجتماعيا لم يعد متلائما بقانون الاحوال الشخصية والقانون الكنسي وقانون العشائر وغيرها .

ولذا نجد المرأة العربية التي منحت حق الانتخاب والترشيح للبرلمان والوصول الى منصب الوزارة او لاي منصب اخر بموجب بعض القوانين تخضع بموجب قوانين اخرى مطبقة في البلد نفسه ، لبيت الطاعة ، ولحكم الطلاق المرتبط بنزوة الزوج . ان مثل هذا الازدواج معبر عنه بالخرزة الزرقاء التي يعلقها السائق على سيارته ليقيها شر العين . وهذا بالضبط ما تستغله دار صحفية كبرى اذ تتقاسم صفحات مجلاتها وجرائدها صور ضخمة للمصانع التي تنشأ حديثا ، والصور الموضوحة بالشروح والارشادات لكيفية استعمال السله التي تحضر بواسطتها الارواح مضافا اليها الفوائد التي يجنيها العلم والتقدم من استعمال هذه السلة المباركة . وهي نفس الذهنية التي املت على كاتب طاف الكرة الارضية ليفيد ابناء بلده بخبرات جميع الشعوب في تحضير الارواح . وهل نزيد فنقول ان عددا كبيرا من البلاغات التي تصل لبوليس القاهرة حول مكان اختفاء احد المجرمين قد املتها السلة الميمونة ؟

ان هذه الظاهرة شديدة الخطورة ، وان عدم الصراحة في مواجهة هذا الازدواج خوفا من اثارة بعض المشكلات الانية الصغيرة هو بجانب كونه ضارا فهو امر لا مفر منه ان اجلا او عاجلا .

***

من الواضح ان اية خطوة تقدمية في المجال الاقتصادي هي موقف ضد المجتمع القديم وتشكل رفضا للاساس الذي كانت ترتكز عليه العادات والعلاقات القديمة . وان عدم وعينا بهذه الحقيقة معناه تحولنا لمتحف يتكس فيه القديم فوق الجديد ، وفقداننا لمقومات الشخصية السليمة المنتجة ، وهو يعني ايضا اننا سنصبح كالمتحف من ناحية اخرى : خارج العصر وموضوع استطراف المتفرج واستغرابه وبتحديد اكثر نقول اننا نخلق ونحمي عوامل المرض والقلق في مجتمعنا ، وبالتالي نعرض كل مكاسبنا للضياع ، اذ تؤكد العوامل والمؤثرات المؤدية الى خلق المرض النفسي عند الافراد وتحولها الى مؤثرات وعوامل اجتماعية، فيحدث كما يحدث في كثير من المجتمعات،التي تتصرف بتعقل بشكل عام، فيما عدا مسائل معينة تثير عندها ردود فعل غير منطقية وغير مبررة ظاهريا . والتاريخ ـ الحديث بشكل خاص ـ مليء بالعبر لنا ، اذا استطاع بعض الفوغائيين ان يستثيروا تلك الردود الى اقصى حد وان يحولوا هذه المجتمعات المسالمه الى مجتمعات تنضح بالشر بالنسبة لنفسها وللعالم .

وسبب امثال هذه الردود ـ كسببه في الاشخاص ـ يعود الى وجود ظروف غير عقلية والى توجيه اثارات انفعالية غير منطقية الى لاوعي الجماعة ، والى تأكيد تلك الظروف والاثارات بشكل مستمر . والعامل الاساسي الذي يجعل امثال هذه المجتمعات مريضة وبحاجة الى علاج هو تجاور عوامل وظروف غير عقلية مؤثرة ، وظروف اخرى عقلية ومنطقية ، وتعايشهما معا .

ولتوضيح ذلك نأتي بمثالين اولهما فردي والاخر اجتماعي .

الاول : فتاة تعاني خوفا لا يمكنها التحكم فيه عندما تشاهد ابراج الكنائس وعندما تسمع اجراسها . وقد استطاع المحلل النفسي ، بعد عدة جلسات ، ان يجعلها تتذكر حادثة قديمة سببت هذا الخوف . اذ اجريت لامها ، انذاك ، عملية جراحية خطيرة ، والفتاة ما تزال طفله .

وبينما كانت الطفلة جالسة في حجرتها بالفندق تنتظر مصير امها ، في حالة شديدة من القلق والترقب ، كان يواجهها من شباك حجرتها برج كنيسة تدق اجراسه كل ربع ساعة . وماتت الام .

كما اكتشف المحلل ان الطفلة انذاك كانت تحس بشعور بالذنب نحو امها ، اذ كانت تعتقد ـ دون مبرر حقيقي ـ ان سوء حالة امهـا وموتها كان بسبب اهمالها لها وعدم عنايتها الكافية بها .

ان استرجاع هذه الحادثة وحده لم يشف الفتاة من هذا (الوهم المتسلط) اذ بالرغم من كونها فتاة ناضجة فما زالت تحمل هـذا الاحساس الطفولي بالذنب نحو امها . فلهذا كان على المحلل ان يشرح لها انها لم تكن مسؤوله عن موت امها اذ كانت في حالة خطيرة وموتها مؤكد . عند ذلك شفيت الفتاة .

وهكذا نرى ان مشكلة هذه الفتاة هو وجود احساس طفولي بالذنب نحو امها غير متلائم مع منطقية الشخصية الناضجة . ان هذا الاحساس مبرر في نفس الطفلة بحكم نشأتها الدينية التي تغرس في اذهـان الاطفال واجبات نحو الامهات ومسؤوليات لا يستطيعون تبريرها . فعند ما ينمو الطفل وتنمو معه تلك الجوانب من تراثه دون ان يسلط عليها وعيه يصاب بامثال هذه الاضطرابات النفسية للحيوية والإنتاج .

والمثال الثاني ، الذي تتحول فيه المؤثرات الموجهة الى لاوعي الجماعة الى اساليب مضحكة في الاقناع ، فيجد في مسرحية سارتر (البغي الفاضلة) ، اذ يحاول عضو الكونجرس الامريكي استثارة القيم غـير العقلية والسائدة في المجتمع الامريكي في ذهن البغي حتى يجعلها توافق على القيام بعمل غير منطقي . فعندما يقتل رجل ابيض زنجيـا فمن المنطقي ان يعاقب ، او على الاقل الا يؤخذ بجريرته رجل اخر ولكن عضو الكونجرس عنده راي اخر :

الشيخ ـ كيف لي ان اشرح لك ؟ اسمعي : تصوري ان « الامـة الاميركية » تبدت لك فجاة . فما الذي ستقوله لك ؟

ليزي (مذعورة) ـ اظن انه لن يكون لديها شيء كثير تقوله لي .

الشيخ ـ هل انت شيوعية ؟

ليزي ـ اية فظاعة : كلا !

الشيخ ـ واذن ، فان لديها اشياء كثيرة تقولها لك . ستقول لك : « لقد بلغت من الامر يا ليزي ان عليك ان تختاري بين اثنين من ابنائي . يجب ان يختفي هذا او ذاك . فما الذي يعمل في مثل هذه الاحوال ؟ يحتفظ بالافضل . واذن ، فلنر ايهما الافضل . هل تريدين ؟ »

ليزي ـ نعم اريد . اوه ، عفوا ! كنت احسب انك انت الذي كنت تتكلـم .

الشيخ ـ انني اتكلم باسمها (يستانف) « هذا الزنجي الـذي تحمينه يا ليزي ، ما جدواه ؟ لقد ولد بالصادفة ، الله يعلم اين ، ولقد غذيته ، فما الذي فعل هو في مقابل ذلك ؟ لا شيء على الاطلاق ، انه يجر اقدامه ويسلب وينهب ويغني ويبتاع الاثواب الوردية والخضراء . انه ابني وانا احبه كما احب سائر ابنائي . ولكني اسالك : اتراه يسوق حياة انسان ؟ انني لن احس حتى بموته . »

ليزي ـ ما ابرعك في الكلام !

الشيخ (متابعا) ـ « اما الاخر ، توماس هذا ، فهو بالعكس قد قتل زنجيا ، وهذا امر رديء جدا . ولكني بحاجة اليه . انه اميركي مئة بالمئة ، سليل اسرة من اعرق اسرنا ، تلقى دروسه في هارفارد ، وهو صاحب مهنة ـ وانا بحاجة الى اصحاب المهن ـ وهو يستخدم الغي عامل في مصنعه ـ الغي عاطل عن العمل اذا مات ـ انه سيد ، سور حصين يقف في وجه الشيوعية والنقابية واليهود . ان له واجبـا ان يعيش ، وان لك انت واجبا ان تحافظي على حياته . هذا كل شيء والان اختاري . » (1)

انها صورة كئيبة للمجتمع الامريكي الا انها ، على اية حال ، صادقة . كما ان وجود امثال هذه القيم في المجتمع الامريكي وهذا الرعب من بعض المحرمات الذي ليس له تبرير منطقي هو امر موعز به من الطبقة المتسلطة ولمصلحتها . ان وثائق الكونجرس الامريكي تحوي شهادة من يدعى (سيمون) حول الثورة الروسية اذ يقول انه لبس نظارة ذات اطـار فولاذي وجاكته من الفرو واختلط بصفوف الشيوعيين هنالك وكانـه منهم . واستطاع بهذه الوسيلة ان يعرف اسرارهم ومداخلهم .

وعندما سئل عن الذين صنعوا الثورة هنالك ، قال ، انهم مجموعة من سكان نيويورك .

وساله احد الشيوخ : والنساء ؟

قال : انهن خضعن للتاميم ، فيقف الناس صفوفا طويله بانتظـار دورهم في المضاجعة .

ويقول الذين حضروا هذه الشهادة انه ليس باستطاعتهم وصـف الغضب والاسى الذي اجتاح الشيخ المحترم .

ان ارثر ميللر في مسرحيته (البوتقة) يصف صورة اخرى من صور هذا المجتمع عندما سيطرت عليه (الكارثية) ، اذ انهارت جميع القيـم العقلية والانسانية امام الرعب الذي اثارته العوامل غير العقلية في المجتمع . ويقول ارثر ميللر في مقدمة المسرحية ، ان افراد المجتمع الامريكي ، كانوا يحسون احساسا غامضا بالذنب اذ اكتشفوا فجـاة انهم ليسوا محافظين ورجعيين الى الحد الذي يتفق مع تقييم السلطات المسيطرة للانسان المحترم . وحتى يستطيعوا الخروج من هذا الاحساس المعذب وفي سبيل ان يبدوا مبررين امام انفسهم انطلقت موجـة الاعترافات والدسائس والشهادات التي لاصحة لها .

هذه بعض نتائج تلك لظاهرة التي سبق وتحدثنا عنها ، اذ يخلـق امثال هذا المجتمع المتوتر الشاذ الذي يمارس الانتحار فيه حتى الاطفال.

* *

وهنالك نتيجة هامة تؤدي اليها امثال هذه الظروف ، اذ يتحول المثقفون المخلصون لثقافتهم الى اناس منعزلين ويصبح لانتاجهم طابـع المحافظة والحنين الى الماضـي .

وعملية تحول المثقف الجاد من انسان يقف موقف المعارضة مـن التراث الذي يحد من حريته الى انسان يحن لهذا التراث ويخضع له عملية معقدة بعض الشيء . فهو عندما يواجه واقعا يحمل فـي داخله هذا الازدواج المخالف للمنطق وغير المفتوح لمنطقية واعية ينعزل تاركا المجال لرجال التوجيه التقليديين . فالعزلة هي تعبير عـن احساسه بالمسؤولية من ناحية ، وهي من ناحية اخرى دلالة على ضيق افـق المثقف الذي لم يتح له ممارسة ثقافته وتطبيقها في الواقع الاجتماعي والتعلم من تجربة الجماهير . وهكذا فهو ما دام لا يجد المجال الملائم لمثله، وما دام يابى ان يضيع وسط التفاهة والرخص الشائعين ، يصبح شرف

---

(1) الاداب عدد ٥ ـ السنة الثانية ـ ترجمة الدكتور سهيل ادريس

اخلاصه هو دافع العزله .

الا انه ككائن اجتماعي مرهف يحس احساسا رهيبا بوطاة هذه العزله ، وتملاه الاشواق دوما الى تاكيد نفسه من خلال العلاقات الانسانية والصلة العميقة الجذور بالناس . ان خصوبة افكاره تبحث دائما عن مجال ، وهو هنا ، يصبح متخيلا بعد ان رأى استحالة واقعيته. ولما كان من المستحيل تصور الناس دون العلاقات التي تربط بينهم فشوقه يتجه الى تلك العلاقات في صفائها الاولي . وقد يتساءل البعض عن السبب الذي يمنع المثقف من التعلق بعلاقات متقدمة حتى يكون منطقيا مع نفسه ؟ فالاجابة ، فيما ارى ، انه ما دام لم يمارس تجربة هذه العلاقات في شكلها الايجابي والنافع ـ اذ انها تعبر عن نفسها في بدايتها بطابع العقلية التجارية والانانية ـ فمن غير المعقول ان يشتاق اليها وينفعل بها ، الا في النادر .

ان مسرحية (العاصفة) لشكسبير ، ربما كانت تمثل تجربة نادرة من هذا النوع ، حيث يخرج الاشخاص من دائرة الاغتيالات والتامر والدماء ، طابع المجتمع الاقطاعي ، الى عالم يسوده الحب ويتميز بنقاوة الحلم وصفائه ، وعلى هذا الاساس ، ايضا ، نستطيع تقييم اعمال نجيب محفوظ حيث السعداء هم اولئك الذين لم يعرفوا العزلة والعلاقات الجديدة بعد ، ويعيشون في عالم تواصل الناس فيه مفتوح الى اقصى حد . ان هؤلاء الابطال يدركهم التمزق والاسى عندما يواجهون وطاة التعارض للامنطقية في العالم الجديد .

واود هنا ان اؤكد حقيقة ، وهي انني اتكلم عن المثقف المخلص لثقافته ومثله ، اذ ان هنالك مثقفين جعلوا من ثقافتهم وسيلة لتحقيق انتصارات اجتماعية انتهوا عندها . كما ان هنالك مثقفين اتخذوا من ثقافتهم ما تتخذه البغي من جسدها : طعما لاصطياد الزبائن والنقود .

الفرق بين مفهومين :

ان هذين النمطين من الحضارة اللذين يتعايشان في مجتمعنا يمثلان مفهومين واسلوبين في التفكير من طبيعة كل منهما ان يعارض الاخر وينفيه .

المفهوم الاول : هو المفهوم الاسطوري Mythopoeic والذي يقوم ادراكه للعالم على اساس توارد الخواطر والارتباطات الظاهرية . وهو في هذا يشترك مع المرضى العصابيين ، كما هو واضح في مثال الفتاة الذي اوردناه حيث ربطت بين احساسها بالذنب نحو امها وبين ابراج الكنائس . انه نفس المفهوم الذي يربط بين خصوبة النيل وخصوبة المراة ، وبين الكوارث الطبيعية وخطايا البشر .

ان مثل هذه الذهنية ليست مشكلة في مجتمع لم يدخله التقدم العلمي بعد ، ما دامت تمثل الانماط الحضارية السائدة ، الا انها في مجتمع اخذ باسباب التقدم العلمي تصبح مشكلة خطيرة ومرضا ينبغي علاجه ، ويكفي ان نتصور انسانا بدائيا يطرح فجاة بكل تراثه للعالم في مجتمع كالمجتمع البريطاني . هنا تصبح جميع مواقفه ومفهوماته التي كانت تكون تكيفا مع مجتمعه البدائي مجرد امراض تشله وتخلق في قلبه الذعر ، وتدفعه الى الهرب والانطواء . سيصبح العالم بالنسبة له مليئا بالاشباح المخيفة متمثلا في الكهرباء والقطار والسينما والمصعد الى ما هنالك من اشكال الالة .

المفهوم الثاني : هو المفهوم العلمي الذي يدرك العلاقة بين الظواهر على اساس التجربة العلمية ، ويفصل بين احاسيسنا والعالم الخارجي. انه الموقف المعارض للسحر الذي يجعل الظواهر الخارجة عنا جزءا من ارادتنا واحساسنا بها ـ ومن الطريف ان بعض الفلسفات الحديثة تشترك مع السحر في هذا المفهوم ـ ولهذا السبب كانت كل الاكتشافات العلمية الكبرى تثير رد فعل اجتماعيا عنيفا ، وليس ببعيد العهد الذي كانت فيه رقاب العلماء والمفكرين الذين يبنون فلسفاتهم على الاكتشافات الجديدة معرضة لسكين المقصلة .

فما هو الحل ؟ : لا استطيع ان ازعم انني طرحت المسالة بالدقة والوضوح الكافيين وبان الحل سيكون شاملا ، انما هي بعض اقتراحات .

لقد وضعت حلول كثيرة لهذه المشكلة ، منها ، ان هذا العالم اصبح ماديا جدا واننا بحاجة الى شيء من الروحانية لنحفظ التوازن . وهذه هي وجهة نظر الامبريالية الامريكية ، اذ تعني بالمادية مطامح الطبقات الفقيرة والشعوب المستعمرة في تحسين مستوى معيشتها ، ولذا فمن الواجب زيادة الوجبة الروحية لتعزية المحرومين والهائهم .

ولهذا تختلط الدعوة للحرب الوقائية ولاستراتيجية الحروب الصغيرة بالدفاع عن الروح المسيحية والثقافة اليونانية وتقاليد الحضارة الاوربية التي نعرفها جيدا .

ولكن هل يعني هذا ان علينا ان نتخلى عن تراثنا الفكري والاجتماعي ونلغيه ، بالطبع لا ، لاننا لانستطيع ذلك اولا ، ولان ذلك لا داعي له ، ثانيا . ان واجبنا ان نحدد العلاقة بين هذين المظهرين لحضارتين متعارضتين يعيشان معا في مجتمعنا .

لقد سبق ان قلنا ان هاتين النظريتين للعالم تنفي كل منهما الاخرى . كما ان التاريخ الحديث يثبت ان النظرة العالمية تخرج دائما منتصرة في النهاية ، ويتاكد انتصارها خلال المجال الاجتماعي بان تنفي المحرمات والمسلمات من التراث وتخضعه لمنهجها . ان هذا لا يمنحنا القدرة على تخطي التراث ، وبالتالي تخطي الواقع ، وانما يجعلنا نستفيد من هذا التراث كخبرة وتجربة .

ان هذا هو السبب الذي جعل دراسة التاريخ باسلوب علمي ثورة اجتماعية . فتراثنا دون تحليل علمي يظل مجرد عبء ورصيد لكل رده عن التقدم الذي احرزناه .

وهذا يتطلب امرين :

الاول : الحرية ، اذ ان المفكر يواجه دائما بعديد من المحرمات التي تؤدي دراستها بحرية الى سخط شعبي من ناحية ، والى تكتيل القوى المستفيدة من التاخر الاجتماعي ضده من ناحية اخرى . ان بعض الكلمات والشعارات المبررة تبريرا سطحيا والتي اصبحت من المسلمات في لاوعي مجتمعنا اصبح من المحرم التعرض لها ، والا فنعوت الخيانة والتهديد المادي والادبي تقف له بالمرصاد . وهكذا اثر معظم مفكرينا السلامة وصمتوا مكتفين بالتحدث عن زوجاتهم واولادهم ومداعبة القراء .

الثاني : تعميم الثقافة ، ورفع مستوى الصناعة وتعميمها . ولابد لنا هنا من الاشارة ان نظم التعليم في المدارس والكليات تعاني هي الاخرى من نظام الازدواج هذا ، فما زال الطفل يدرس ان الله خلق العالم في ستة ايام واستراح في اليوم السابع ونظرية جيمس جينز عن اصل الارض ، وما زال علم الاحياء يلخص نظرية دارون ويفرض هذا الخليط المتناقض اشد التناقض على عقلية الطلبة .

القاهرة — غالب هلسا